ثنائية الأبعاد الثلاثية للمدينة قراءة في جغرافية الاجتماع

الاستاذ الدكتور
ماهر يعقوب موسى
الجامعة المستنصرية – كلية التربية

المستخلص

اعتمدت طروحات الدراسة على بعدي الفكر والمجتمع والعلاقة بينهـا والكيفية التي يرتبطان بها مع الأبعاد الزمنية الثلاثة (الماضـي والحاضـر والمستقبل) والية التدخل بين هذه الأبعاد في صياغة المدينة التي تدعم الأفكار والمجتمع على اعتبارهما الحزام الناقل لثلاثية الزمن الذي يترك صـيرورة إبداعاته داخل المدينة ، والمتجه ابد نحو المستقبل الذي يجعل المدينة مشهدا متغيرا على الدوام ويتبنى البحث الآليات التي تسير المدينة لمعرفـة كيفيـة تعامل المجتمع مع تفاصيلها الثابتة وإدارتها المتحركة ، بعقد ضفيرة تتشابك فيها الأبعاد الثلاثية بانسجام جلي يجعل الناس يعيشون الأزمنة الثلاثـة فـي نقطة الحاضر الومضي في الانتقال بين شدة المستقبل المسكون في الماضي المستلهم ابدا في حاضرنا .

تمنح الحداثة امتدادات جديدة مؤثرة في المدينة ، لأنها تسـتكمل لغتهـا المكانية التي تجعل تكوينات المدينة أكثر انسجاما و قبولا ، وهذا ناجم عـن تدفق الطاقة للمكان يجعل الحيز يتوسع باستمرار إلى ما لانهاية بتفتيت كل ما

هو ثابت وتحويله إلى دائم الحركة فتتحول المساحات البسيطة إلى مساحات ثرية ليس بتنوعها ، وإنما بانسجامها الزمني المتواصل الذي ينبثق عنه المنطق المكاني المبلور لإحساس الجميع بان المكان الذي يجمعهم ينتمي إليهم جميعا .

Two dimensions-Triple for city

Abstract

Thiess of this study depend on two dimensions which is the thought and society and , its relations between them ,then the mechanism which linked with past , present ,and future . These components form the moving belt of time , which leaves his creativities in city .

المقدمـــة :

تشكل المدينة ظاهرة متميزة من اختراع الإنسان والمدينة ما هي إلا تركيب مبني على مكونات مستمدة من وظائفها آلت تتوزع على وفق اعتبارات موقعية تتعلق بقيمة الأرض أساس ، أو تخطيطية ترتبط بالاتجاهات المكانية لتوسع المدينة مستقبلا ، ومع ذلك لابد من إعطاء وظائف المدينة وزنا واهنية داخلها أن عناصر المدينة التي تعمل على الأرض هي ذات تأثير واقعي ، أما النماذج فهي اصطناعية ادائية ، فعلى الباحث أن يركب النموذج ثم يربط النماذج بنموذج المدينة الحقيقي ، لابراز الاليات التي تسير المدينة لمعرفة كيفية التعامل مع تفاصيلها الثابتة وادارتها

المتحركة لخلق علاقة بينهما يمكن أن تؤشر من خلالها اخلاق القيمين عليها وتحديد مقدار ذاتيتهم في إبراز روح المدينة وازدهارها بعقد صغيرة تتشابك فيها أبعاد الثلثية بانسجام جلي يجعلنا نعيش الأزمنة الثلاثة في نقطة الحاضر الانتقالي بين شد المستقبل الراحل إلى الماضي .

قد تؤثر هذه العلاقة في التغذية الاسترجاعية على أنظمة المدينة الاجتماعية ومرر وثلتها الثقافية والروحية المسيطرة ، وتجعل الأجيال اللاحقة لا تخضع للأمر الواقع ، بل تفضي إلى تغيير منطق الأشياء نسبيا لكي تستمر المدينة في مشاهدها المتغيرة على وفق التهجين المستمر بين الإنسان الذي يراقب المدينة والمدينة التي ترى ، المختلفة عن القرية التي تراقب حركة ساكنيها فنجدها هادئة رتيبة ، وهي تشكل الجزء المأهول من الريف على الأقل في مدن الشرق .

الفكر والمجتمع والزمن :

يشكل الفكر والمجتمع ثنائية تتماهى ببعضهما ، وان شبكة الاتصالات قد إعادة إنتاج ثلاثية الزمن (الماضي ، الحاضر ، المستقبل) بشقيه الشعوري والمادي وينعكس ذلك على المدينة التي هي انعكاس لفكر المجتمع .

ويبرز لنا المسح العام للفكر الإنساني وجود ثنائية تربط بين الطلسمية والعقلانية ولابد هنا ن إيجاد نوع من التوازن بين الرمزية والعقلانية فالفكر المبدع وحده يكون حبلا سريا قادرا على إيصال الحياة بالحياة . فالمدينة تمثل حياة متناسلة باستمرار في ثلاثيتها الزمنية المرتبطة بالإنسان والموقع والموضع فالمدن وتطورها ما هي إلا حصيلة التناقضات بين الجوانب الانفعالية والعقلانية للمجتمع وهذا ما أكدته الفلسفات القديمة التي برزت في

مدنها حضارات أكدت على وجود توازن بين الثنائية القائمة على الانفعال والعقل . وأصبحت مدنهم مركزا للاشعاع وكانت عقدة الزمن المتحركة في المكان الثابت ، فالمدينة بمثابة الحزام الناقل الذي يعبر عليه الزمن ويترك فيها ابداعاته .

وعندما يكون الماضي متصلا بالحاضر يستمر اشعاع المدن كما هو في أماكن المدن الواقعة في حضارات شرق أسيا مثل الصين وتايلند والهند ، بينما في شرقنا الأدنى حدث انقطاع فكري وزمني بين المدن القديمة ومدننا الحالية رغم أن الشمس ينتجها الشرق دائما ، والغرب يبتلعها .

لو تعلمنا الكثير من أنماط التفكير عند الشعوب والمجتمعات الغريبة عنا سواء كانت بدائية أو المعقدة . فالتفكير يتأثر بتنشئة المجتمع ومقاييسه ومعاييره السلوكية وهذا يعتمد على طبيعة الأفكار الفردية التي تتجاوب مع البيئة الاجتماعية والعلاقات الإنسانية في ذلك المجتمع ، مما يبرز حيوية التفكير المؤثر بمتغيرات المحيط والمؤثرة فيه لتفسير الحياة الاجتماعية للمجتمعات القديمة أو الحديثة ، ببعديها الذاتي والموضوعي .

فالفكر والمجتمع يشكلان ثنائية تتماهى ببعضها ، وان تعقدت العلاقة بينهما ظاهريا لما لوسائل الاتصال وما تنتجه من تواصل اجتماعي غير مباشر في الوقت الحاضر ، عما كان عليه سابقا ، عبر المواقع المختلفة في شبكة الاتصالات للانترنت .

المدينة والمشهد المتغير :

يبدو ثمة تدخل بين الأرض والسكان والعمران في تشكيل أية مدينة ، فالأرض ترسم الأبعاد المكانية لها وما سيكون عليه شكلها وطبيعة امتدادها ،

تبعا لتضاريسها وموقعه وموضعها اللذان يحفزان بقدرتهما الذاتية إلى جذب الإنسان إليهما لاتخاذهما موئلا له . فالأمكنة ، إذن ، تتصارع مع بعضها على جذب الناس إليها لاستثمارها . وما أن يستقطب المكان سكانا ذي خصائص لهل رؤى في إعادة صياغة بعدي جغرافيته الطبشرية (*)، ستتنافس عناصرها المكونة للمكان مع بعضها لمساهمة في جعل الحيز المكاني دائم الحركة وأكثر ثراءا .

فالجيولوجيا والتضاريس والتربة تقدم المادة الأولية في صناعة المدينة في حين يحضر يحفز الموضوع عبر تلك العناصر قدراته الذاتية ويستفز ساكنيه لإنتاج حضارة مكانية تعتمد أهميتها وديمومتها على ما يقدمه السكان من طاقات متجددة في حضارتهم ، ورؤيتهم للعالم وللكون وكيفية اختزالهما في فضاء مكاني تستقر عليه المدينة لتعيد (الرؤية) من جديد عبر الزمن بأشكال عمرانية ذات رمزية يتدخل فيها المادي بالروحي ، فضلا عن النصوص والمدونات وهما يسجلان الأبعاد الفلسفية لأفكار سكان تلك الحقبة الزمنية ، وتأثير البيئة التي يسكنون على طريقة تنظيم حياتهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، وهذا التنظيم ينساق باتجاهات الموقع وعلاقاته المكانية الذي يندرج تحت ثلاثة مستويات هي الموقع السياسي والموقع العمراني والموقع الطبيعي (١) . ويخلق الموقع المتميز في الظروف غير المتوترة مستوى رفيع من الاتجاهات الفكرية المتنوعة التي تدعم المدينة وتنميها على الصعيدين المادي والمعنوي ، أما إذا كان الموقع المتميز بين مناطق التنافر* فهو يمنع المدينة لاستمرار ويفقدها الاستقرار . ومتى ما استطاعت أن تنمو المدينة على وفق المسار المتوازي بين العمران والفكر

بتغذية احدهما للأخر ، تكون قادرة على استيعاب تاريخ المكان واختصار هويته إلى رموز ودلالات تحفظ ارث العمارة المحلية وتطلقها إلى مسافات زمنية باتجاه الغد ، أي أن تكون عبارة فوق تاريخ البيئة المحيطة نحو مستقبلها الآتي ، وغير متعارضة مع طبيعة المكان . ويعني ذلك أن الفن والعمارة هما استنتاجا معماريا وتشكيليا للمكان قائما وسط هوية كانت بحاجة إلى تاطير وجودها .

وعلى وفق هذه النقية التاريخية والطبيعية تأخذ المدينة نضجها الذي لا يتوقف عبر الموروث المستمر . لذا يكون الموقع حاضنا للمدن التي ترث بعضها البعض ، باتخاذ وظيفة المدينة الموروثة ساء ضمن الموقع أو خارجه ، وقد تظهر مدنا في الموضع ذاته بديلة عن المدن السابقة لها وليس بالضرورة أن تأخذ وظيفة المدينة المستبدلة . هذا النمط من الحراك للمدن كان موجودا في حقب تاريخية مختلفة وهو يشكل مخاضات ناجمة عن تنافس وصراع بين الثقافات والمعتقدات للهيمنة على المكان لغرض إضفاء صبغة عليه لتغيير معالم مدنه بما ينسجم مع إيديولوجية المنتصر ، إذن المكان هو ناتج إسقاطات إيديولوجية ، وأستمر هذا الحال حتى سنة (١٩٤٥) ، إذ برزت حالة جديدة لإعادة ترتيب الخارطة السياسية والاجتماعية والاقتصادية للعالم . إذ لابد أن أيكون لكل مرحلة وضعها الخاص ، فلا يمكن أن تكون كل المراحل لحاكم واحد ، بل أضحت كل مرحلة لها رجالاتها . لاسيما بعد أن تفكك الاتحاد السوفيتي ، وأمسى القطب الواحد على ما يبدو سيقود المرحلة الجديدة وفق رؤاه لزمن قد يطول .

فالمتغيرات التي تحدد اختيار موضع ما للمدينة ضمن الإطار العام للموقع ، قد تكون متغيرات خارجية أو مؤقتة كان تكون سياسية [٢] .

وعليه فالمدينة ليست نبت بلا جذور ، إنما هي أشبه بنبتة الخيزران التي تبقى متقزمة لما يقرب من عقد من الزمن وفجأة تستطيل مع صلابة ومرونة العاليتين ، فالمدن هي هكذا عند نشأتها، ما تلبث أن تنمو وتزدهر مكونة هويتها عبر عقودها المتعددة في مواجهتها للتاريخ ضمن مساراتها الدينامكية المتوازنة في كينونتها . فمهما تراجعت المدينة أو تقدمت نحو المستقبل يبقى جذرها في التاريخ يزود نسغه الدائم عناصر تحولات المدينة بالاتجاهات المرغوبة ، وينوع استعمالاتها بوظائف لها فعاليات نشطة . حتى يبدو مع ما يضفى عليا من رؤى حديثة يقدمها السكان منسجمة مع تاريخ نموها كما تناولتها عقول وأفكار تلك الحقب . فالحداثة هي نداء لبناء المعنى الذي يتراكم من نشاطات الحياة اليومية التي تغير باستمرار من واقعنا بدلا من فرض نظام معين على الأشياء [٣] . ولكي ندرك الأشياء بسهولة ينبغي التخلص من الفهم المسبق لها ، بالابتعاد ولو قليلا عما ترسب في أعماق تفكيرنا من تراكمات تحجب النظر إلى الأشياء بالروح التي تمنحنا رؤية جديدة لتلك الأشياء من خلال الإيحاء والتأمل والتأويل .

فالحداثة تمنح امتدادات جديدة مؤثرة للمدينة في تشكيل تنوعها كي يكون منسجما ويعطي الهوية المستقبلية للمدينة عن طريق خلق الحلقة الرابطة التي يتماها فيها الزمن مع الفكر الحداثوي من اجل استكمال لغة مكانية لا تشعرنا بوجود مزعجات في تكوينات المدينة . وهذا نابع من تدفق الطاقة للمكان لجعل الحيز يتوسع باستمرار إلى ما لا نهاية [٤] كما تقول المعمارية (زها

حديد) ، وذلك بتفتيت كل ثابت إلى ما هو دائم الحركة ، لتجعلنا هذه الحركة نحمل كل مكونات المدينة في ذاكرتنا ، بحيث نستحضرها جميعا لو استوقفنا مشهد فني معين ، لإعادة ترتيبها كمشاهد سينمائية لها دلالات غير مرئيـــة الصور تساعد على رسم التشكيل الملائم للمدينة في ذهن كل مـــن يســـكنها وتفاجئ زوارها من خلال ما تصدمهم بدهشة جديدة لما فيها من خصوصيات غير مألوفة لديهم مسبقا ، وهذا يأتي من أن ساكني المدينة ينبغي أن يرونها رحما يحتضنهم ويوفر لهم كل مستلزمات الحيـــاة الضـــرورية فالســـاكنون يمثلون الولادة الجديدة باستمرار للمدينة التي لا تهرم مع الزمن ، بل تتجـــدد مع كل جيل يولد .

ما ينبغي أن تكون عليه المدينة

ليس ثمة مدينة لا ماضي لها ، سوى المدن المخطط بعد الحرب العالمية الثانية ، وان اختلفت المسافة الزمنية بين المدن تاريخيا . أن تفاوت العمـــق التاريخي لجذر المدينة يعكس وضعها الحالي وشكلها العام (Land scape) وكيفية نموها والطريقة التي تنمو فيها ، لذا فان المدينة التي لم يزل تاريخها يمثل قبلها المادي الملموس وهو بمثابة الثقب البيض(**) الذي يستقطب ليس سكان المدينة وإنما أعداد كبيرة من السياح الأجانب ليدخلوا تاريخهـــا مـــن بوابة حاضرهم .

ولكي يستدعي المكان روحا جديدة للمدينة ينبغي إنشاء مباني هي اقرب للنصب برمزيتها ودلالاتها ، فضلا عن وضع نصب وتماثيل تحـــاكي تلـــك المرحلة يروح الحداثة لتثري بخطابها الانسيابي المساحة المفتوحـــة ، لكـــي

تتنفس المدينة عمق التاريخ المنسجم مع روح المعاصرة التي يحملها الناس ، فتتحول المساحات البسيطة إلى مساحات ثرية ليس بتنوعها فقط، وإنما بانسجامها الزمني المتواصل .

أن المدينة الحالية وما يرافق تشكيلها من تقنيات مختلفة الاستخدام سواء في النقل والاتصال ، أو في المعمار أو الخدمات ، أو في خطة الشوارع . بفرض هذا واقعا مختلفا على المدينة مع الزمن عند إجراء تعديلات عليها أو توسعات في المكان ، لذا لابد من أن تكون حذرين عند إجراء ذلك وان نتفادى قدر الإمكان التشويهات التي يمكن أن تحصل في بنيتها المكانية ، لان المدينة وحدة بيئية تتجه بوصلتها دائما نحو النظام كونها تتعامل مع مدخلات مختلفة وجميعها ذات أهمية بالغة مثل الطعام والوقود والماء ، وكيفية عمل هذا النظام في معالجة تلك المدخلات بطريقة ايجابية لتكون مخرجاتها غير عابثة في عناصر المدينة .

فالمدينة تنمو وتتطور في المكان على أساس محدداتها التي تضفي على نحوها شكلا قد يكون هندسيا أو لا يكون . يعني أن تصميمها الأساس تتشرب فيه رؤى لابد وان تنسجم مع اتجاهات ذلك النمو الذي يرتبط بعناصرها ، وما يضفيه المعمار من أفكار وثقافة تمنح المدينة بعدا إنسانيا يتم تعزيزه من فناني المدينة وهم يستلمون رموز ثقافتها وطبيعة تلك الثقافة ، وتحويل ذلك إلى لوحات فنية تحاكي الشعور المشترك للسكان دون تمييز ، وهنا ينبغي أن نستخدم المنطق المكاني كي يتولد أحساس لدى الجميع بان المكان الذي يجمعهم ينتمي إليهم جميعا . فالإضافات المعمارية والتشكيلية التي تتوزع تخلق تواصلا بين ماضي المدينة بنسغه الصاعد ، وهو يسهم في

بناء حاضرها ويتغلغل بألفة متواصلة مع قنوات الغد . وقد تبدو للبعض أن البنى المعمارية لا تنتمي للتاريخ ولا للثقافة في مدنهم ، وهذا لا ضير فيه إذا كان انتمائهم للتاريخ المستقبلي وهو يوثق للخيال وما بعده [٥] . لا سيما ونحن نعيش الآن وننتمي بحواسنا المتجهة دون إرادتنا للعصر الرقمي ، الذي يمثل التغير المتسارع علته المتجددة في الخطاب ألومضي الخاطف والذي يجعلنا جميعا مشاركين بالنص شكلا ومضمونا بوحدة لا يمكن الفصل بينهما . فالبلاغة الفنية بين الداخلي والخارجي سواء للعمارة أو اللوحة الفنية . ينبثق عنها تكوينا جماليا يدفعنا إلى المستقبل أبدا .

وهنا ينبغي أن تكون المدينة متحفا [***] مفتوحا في الهواء الطلق عبر فنانيها بمختلف تصنيفاتهم ، سواء كانوا معماريين أو فنانين تشكيلين أو نحاتين أو سينمائيين أو كتابا أو مسرحيين ، عليهم جميعا أن يخلدوا مدنهم لتخلدهم . فالطيف الفني الواسع بألوانه المتنوعة وترابطاته المنسجمة وهو نابع من تراث المجتمع الممتد في الثلاثية الزمنية الموصولة بفكر الإنسان الذي لا ينفك من تشكيل الذات المكاني المتناغم مع الإحساس العام للذات الإنسانية جمعاء دون تعارض معها . وعلى الذات الإنسانية أن تستوعب شطحات الفنانين دون تأويلها باتجاهات تقمع الفكر الحر . أن التدخل بالتفكير نيابة عن الآخرين ، هو الذي يعيق الإبداع ، فالتفكير المتحرر يجعل الناس يتعلمون ، ولا يمكن أن يكونوا مبدعين إلا إذا قاموا بأدوارهم الخاصة في التفكير [٦] . فالفكر الإبداعي يتطلب رأسا نظيفا خاليا من الأفكار القديمة البالية [٧] . فالإبداع ينبثق من تجاربنا الخاصة .

أن المدينة ليست فقط سكان ووظائف واستعمالات تشكل فسيفسائها ، وإنما هي كائن حي عبقري ينجب فنانين بمستواه ، والفنان بطبعه متمرد يحاول ابدآ تفكيك المدينة لإعادة صياغتها ، بتصاميم مشفرة بدلالاتها السحرية التي قد تتجاوز اتساق المشروع مع بيئته بطريقة عابرة فوق تاريخ البيئة المحيطة إلى مستقبلها الآتي [٨] حسب قول ريم كلهاس . وهذا يمنح الناس فرصة لان يعيشوا المستقبل في حاضرهم .

مشاركة المجتمع في تأثيث المدينة

لا تكفي المدينة بما يختار لهل من لوحات فنية لم يؤخذ بشأنها رأي سكانها باستفتاء يحدد قبولها أو رفضها ، بل ينبغي أن يساهم برأيه في اختيار المكان المناسب الذي تحتله تلك اللوحة الفنية أو النصب أو التمثال ، لان المشاركة هي إحدى أسباب ديمومة العمل الفني وبقاءه دون أن يتعرض للأذى من الأجيال اللاحقة ، وان قد يطرأ على تفكير بعض التغيرات الناجمة عن الوضع السياسي أو الإيديولوجية التي تشكله المرحلة ، إلا أن الاختيار الصائب قد لا يتأثر بهذه التغيرات بالصورة التي تلغي ما هو كائن لتكرس ما ينبغي أن يكون ، وان عدم حدوث هذا يعتمد على الوعي الديمقراطي للسكان وفكرة الحكم القائم . لان ما موجود في المدينة يصبح جزءا من وجدانه ويجسد قيمة اعتبارية له ولمدينته . فالمشاركة في القرارات التي تخص المدينة يعني أن المسؤولية تشمل الجميع . ومن هنا يستمد الفرد اعتباره الشخصي ، ويشعر بمساهمته في صياغة هيئة مدينته التي تمثل هويته .

فالإنسان الحضري داخل المدينة يعيش لممارسة نشاطاته اليومية ضمن بيئته الحضرية فثمة من يتعامل بعفوية مع مستويات لبيئة ، ومنهم من يتعامل

بحذر مع مفرداتها المختلفة . ومع أن المدينة تأخذ شخصيتها من سلوك ساكنيها إلا أنها تستمد بعض مقوماتها الأساسية من منظور الدولة المرتبطة بعدة اعتبارات قد توجه المدينة باتجاهات معينة مفضية إلى إبراز ظواهر متباينة الخصائص تؤثر على كيان المدينة تنبثق عنها انطباعات خاصة لدى سكانها تجعلهم ينظرون إلى مدينتهم على وفق انحدارهم الطبقي والوعي الفكري ومستواهم الثقافي ، ووضعهم النفسي بحيث يفاجئ المرء ، بانطباعات يمكن تبرير بعضها دون الآخر . فالانطباع الشخصي يعتمد على مستوى الثقافي والنفسي والاجتماعي للإنسان . وان مصطلح النفسي – الاجتماعي يتجاوز التعارض بين الفرد والمجتمع ، وبين الوراثة والبيئة .فليس ثمة فرد في عزلة ، كما ليس هناك مجتمع معزول تماما في عصرنا الحالي . فمثلما يوجد اندماج بينهما (الفرد و المجتمع) لا يوجد توحد يذهب التمايز ويلغي الذات ، وهذا ما يفرز إفرادا يضيفون ويغيرون في مجتمعاتهم أو في المجتمع العالمي ككل بما يقدمون من أفكار متقدمه من عصرها ، فالتفكير ليس ظاهرة فردية ولا هو ظاهرة اجتماعية ، إنما هو فردي – اجتماعي في الوقت ذاته . ويرتبط التفكير بمفهوم الديناميكية أي انه قوة وطاقة وفعالية ، انه تأمل للتغيير والتبديل لواقع الحياة ومعالمها و أوضاعها المختلفة نحو الأفضل [٩] .

مثلما يساهم ابن المدينة في إضافاتها الفنية ، فانه يشارك في أي تغيير قد يحدث في المدينة ، لاسيما تلك التي أخذت بعدا نفسيا – اجتماعيا في ذاكرة سكان المدينة . فلا يمكن أن تأتي مسؤولا ليس من سكانها ويقرر بعجالة إزالة جسر صغير ، على سبيل المثال ، ويقترح آخر بديلا عنه ، بعد

أن كان ذلك الجسر جزءا من الذاكرة الجمعية لسكان تلك المدينة . أو إزالة معنى تعاقبت عليه أجيال ، فاضحى صدى لذكرياتهم ، فالتغيير في هذه الحالة يعني استئصال ذاكرة الإنسان ودفعه مكرها نحو ألاغتراب التدريجي وإضعاف انتمائه للمكان هنا علينا أن نتعرف ونعي ماذا علينا أن نغير ؟ وكيف نغير ؟ ومتى ؟أما التغيير المطلوب هو أن يكون في أسلوب تفكيرنا لينسجم مع البيئة التي نعيش ، فكلما انفصلنا عما نقوم به كلما تراجعت الفرصة أمام انتاجنا لكي يصبح فكرا لامعا .

التفكيك والتركيب :

أن مشاهد المدينة الفنية ينبغي أن تكون ذات أبعاد غير مباشرة في بعضها على الأقل سواء في رمزيتها أو دلالتها ، وهذا يجسد الفنان المبدع لاستنهاض خيالات الإنسان وتصوراته بشكل يومي في محاورته لتلك المشاهد وما ترمز إليه هذه ألكتله المعمارية ، أو تلك اللوحة الفنية (تمثال ، نصب ، لوحة تشكيلية) وهذه تولد في أفكار ساكني المدينة صورا مدهشة ومتباينة ناجمة عن أبعاد رؤيوية تختلف من شخص لآخر تبعا لمزاجه وثقافته وتكوينه النفسي الذي هو فيه . مما يسمح للرؤى المتراكمة في وجدانه نحت أو تصوير خاص في ذهنه لرمزية ودلالة تلك اللوحة الفنية . فالمتلقي يعيد صياغتها كما هو يراها ويصبح هو صانعها ، فكل فرد في مجتمع المدينة يفكك التكوين الفني حسب إدراكه ويعيد بناءه بمقتضاه .

بمعنى أن الفنان ، بطريقة غير مباشرة ، ادخل إنسان المدينة مشاركا في لوحته الفنية ، فالعمارة التخيلية ما مكانها أن تحدث تغييرا في حياة الناس [١٠] إذ يتحول مروعها ألموقعي إلى ما يشبه النصيب التي تميز المكان بملامح

هوية خاصة به فالفنان يكون دافعا في تنمية ذوق الإنسان وباعثا لـــه علـــى إدراك الجمال الفني والمحافظة عليه فالعلاقة بين الفعـــل المـــادي والفعـــل الإنساني يولد ارتدادا لحضارة دافعة ، فالحضارة كما يقول فرويـــد : هـــي الذات الأخلاقية العليا التي تنشا بالطريقة نفسها الذات الأخلاقية عند الفـــرد ، فالذات الأخلاقية للحضارة تتركز على إنتاج الشخصيات العظيمة من تعـــاليم وأفكار وانطباعات ونظرة متوازنة للكون والمجتمع [١١] .

الخاتمـــة :

تكشف أنماط التفكير لدى المجتمعات التي نتعلم منها دون استثناء عـــن الأفكار والمبادئ التي نؤمن بها ، وقد عززت من ذلـــك وســـائل الاتصـــال الحالية بمواقفها ، المختلفة في التواصل الاجتماعي وإعادة إنتاج ثلاثية الزمن الحسي والمادي .

وكل مجتمع ينتج مدينته تبعا لكفاءته وقدرته وتصوراته بغض النظر عن بساطة بنية تلك المدينة أو تعقدها ، وهذا يعتمد على خطتهـــا العمليـــة وســـلوكية مجتمعها وهذان العنصران يعبران عن جمالهـــا ودهشـــتها الكـــامنين فـــي انسيابيتها الوظيفية .

فالفارق بين ما هو بدائي (بسيط) ومتقدم (معقـــد) هـــو كيفيـــة تنـــاول المصطلحات نفسها من وجهة نظر التفكير ذاته فبينما يحيط التفكير البـــدائي الجو السحري لتلك المصطلحات نجد أن التفكير المتقـــدم يحيطـــه التفكيـــر المنطقي الواقعي .

فالمجتمعات لاسيما البدائية والبسيطة لا تتسم بالعقلانية ، وإنما الرمزية والانفعالية والإدراكية، إذا كانت تلك المجتمعات تؤمن بالكائنات الغامضة .

فالفكر المبدع غالبا ما يكون حبلا سريا لإيصال الحياة بالحياة (الماضي ، والحاضر ، المستقبل) لتتناسل المدينة ضمن ثلاثيتها الزمنية المرتبطة بالإنسان والموقع والموضع .

أن العلاقة الناجمة عن التفكير بالثنائيات بين الحياة والموت ، والمادي والروحي ، والنظام الاجتماعي والنظام الطبيعي ، والبدائية والتعقيد ، والصوفي والعلمي ، الخيالي والواقعي ، هي التي تولد الامتداد أو التكامل وتختزل الزمن ، وتصبح المدينة العقدة المتحركة في المكان الثابت . فهي تمثل الحزام الناقل الذي يعبر عليه الزمن ويترك فيها إبداعاته .

ولكي تستمر الحضارة عبر الزمن ينبغي أن لا يكون انقطاعا فكريا في الزمن المتصل بين ماضيه الجدير وحاضره البصير على الأقل في شرقنا الذي ينتج الشمس ،والغرب يبتلعها .

كانت فيما مضى تظهر المدن الوريثة هنا والمدن البديلة هناك ومثل هذه المدن هي شاهد على مخاضات الصراع التنافسي بين الثقافات للهيمنة على المكان لتغيير معالمه بما ينسجم مع اديولوجية المنتصر الحداثة امتدادات جديدة مؤثرة للمدينة . تخلق حلقة رابطة بين ماضي المدينة ومستقبلها لاستكمال لغة مكانية لا تشعرنا بمزعجات في تكوينات المدينة ،وهذا يعتمد على تدفق الطاقة المكانية لجعل حيز المكان يتوسع إلى ما لانهاية، أي جعل كل ما هو ثابت في حركة دائمة .

فالمدينة ما هي إلا رحم يحتضن ساكنيه الذين يمثلون الولادة الجديدة المستمرة للمدينة لكي لا تهرم مع الزمن . فالمدينة تشل وحدة بيئية تتجه بوصلتها نحو النظام لتعاملها مع مدخلات متنوعة ينتج عنها مخرجات تحدد مدى قوة عناصر المدينة .

والمدينة رغم أنها مصدر فيه تدمج الاختلافات البشرية على مستوى الفردي الجماعي ، ليصطبغوا جميعا بقاسم مشترك اكبر يميزهم عن غيرهم ويمنحهم خصوصية يتفردون بها دون أن تذهب تمايزهم وتلغي الذات ، لان الفكر الفردي يعمل ويؤثر أيضا في الفكر الجمعي مثلما الفكر الجمعي (التراثي) يمثل ظرفا يحيط بالفكر الفردي ويوجهه في اغلب الأحوال ، فالتفكير يس ظاهرة فردية ولا هو ظاهرة اجتماعية ، إنما هو فردي- اجتماعي في الوقت ذاته . فالتفكير يمثل قوة وطاقة وفعالية وهو أداة تأمل للتغيير والتبديل لواقع الحياة نحو الأفضل .

أما الفكر الحر داخل المدينة ينبغي أن يكون واعيا لظرفه وواقعيا وله القدرة على الفصل والتصور لمل يحيط به ، وطرح الأسئلة باستمرار فيا يتعلق بتطوير المكان والاهتمام بتغييره نجو الأفضل وان يتمتع بالقدرة على الانجاز حتى النهاية . ولكي يكون الفكر كذلك لابد أن يبتعد عن دائرة التبعية حتى يبقى مبدعا وكفوءا في تطوير طاقة المكان .

الهوامـــش

(*) الطبشرية : هي البعد الطبيعي في الجغرافيا والبشري ونحن بهذه المفردة لتداخل البعدين ببعضهما كان كل واحد منهما يصنع الآخر ويتفاعلان في إنتاج الحضارة .

١. احمد حسن إبراهيم ، مدينة الكويت : دراسة في جغرافية المدن ن مطابع اليقظة ، الكويت ، ١٩٨٢ ، ص ١٨ .

٢. جمال حمدان ، جغرافية المدن ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ٤٢٩ .

٣. ارون بستكي ، ملحق جريدة المدى ، عراقيون من زمن التوهج ، العدد (٢٠٥٦) السنة الثانية ، الخميس ٢٠١١/٣/١٠ ص ١١ .

٤. جريدة الغد الأردنية ، عن ملحق جريدة المدى ، آذار ٢٠١٠ .

(**) مقاربة معكوسة مع الثقب الأسود نجم في الكون تكون جاذبيته من القوة لدرجة لا تسمح للضوء الصادر منه أن يفلت فيبدو معتما .

٥. محمد مهدي ، ملحق جريدة المدى : عراقيون من زمن التوهج ، مصر سابق ،ص ٧ .

(***) تضم مدينة لندن وحدها بحدود ٣٠٠٠٠ نصب وتمثال تؤرخ تاريخ المدينة .

٦. مايك فانس وديان ديكون ، التفكير خارج الصندوق ، ترجمة مكتبة جرير ، مكتبة جرير ، الرياض ، ٢٠٠٨ ، ص ١٩ .

٧. مايك فانس وديان ديكون ، المصدر نفسه ، ص ٥٢ .

٨. فاروق سلوم ، ملحق جريدة المدى ، مصدر سابق ، ص ١٤ .

٩. محمد عبد الرحمن مرحبا ، الفكر العربي في مخاضه الكبير ، دار الجيل ، بيوت ، ب . ت ، ص ٧٦-٧٨ .

١٠. الغارديان ، عن ملحق جريدة المدى ، مصدر سابق ، ص ٥ .

١١. جارلس ماج ، المجتمع في العقل : عناصر الفكر الاجتماعي ، ترجمة احسان الحسن ، سلسلة مائة كتاب – الثانية ، دار الشؤون الثقافية العامة ، الطبعة الأولى ، بغداد – العراق ، ١٩٩٠ ، ص ٣٢ .

المصـــــادر

١. يانكو لافرين ، ينتشه ، ترجمة جورج جما ، سلسلة إعلام الفكر العالمي المعاصر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٧٣ .

٢. احمد حسن إبراهيم ، مدينة الكويت : دراسة في جغرافية المدن ، مطابع اليقظة ، الكويت ، ١٩٨٢.

٣. جمال حمدان ، جغرافية المدن ، القاهرة ، ١٩٦٠ .

٤. ارون بتسكي ، ملحق جريدة المدى ، عراقيون من زمن التوهج ، العدد (٢٠٦٥)السنة الثانية ، الخميس ٢٠١١\٣\١٠ .

٥. جريدة الغد الأردنية ، عن ملحق جريدة المدى ، المصدر السابق .

٦. محمد مهدي ، ملحق جريدة المدى ، المصدر السابق.

٧. مايك فاس وديان ديكون ، التفكير خارج الصندوق ، ترجمة مكتبة جرير ، الرياض ، ٢٠٠٨ .

٨. المصدر نفسه .

٩. فاروق سلوم ، ملحق جريدة المدى ، المصدر السابق .

١٠. محمد عبد الرحمن مرحبا ، الفكر العربي في مخاضه الكبير ، دار الجيل ، بيروت ، ب.ت .

١١. مايك فانس وديان ديكون ، المصدر السابق .

١٢. المصدر نفسه .

**عبد الله العروبي ، مفهوم الايدولوجيا ، الطبعة السابقة ، المركز الثقافي ، الدار البيضاء ، بيروت ، ٢٠٠٣ .

١٣. مايك فانس ، المصدر السابق .

١٤. المصدر نفسه .

١٥. الغارديان ، ملحق جريدة المدى ، المصدر السابق .

١٦. جارلس ماج ، المجتمع في العقل : عناصر الفكر الاجتماعي ، ترجمة إحسان محمد الحسن ، سلسلة المائة كتاب–الثانية . دار الشؤون الثقافية العامة ، الطبعة الأولى ، بغداد–العراق ١٩٩٠ .

١٧. منير بعلبكي ، قاموس المورد ، الطبعة ١٥ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٨١ .